# المقاومة الشعبية في الجنوب الغربي الجزائري: مقاومة الرقيبات أنموذجا (1900- 1934م)

أ. مبارك جعفري*

مقدمة: بعد الاحتلال الفرنسي هب المجتمع الجزائري بمختلف أطيافه وتوجهاته للمقاومة والدفاع عن المقدسات. وما من خطوة خطاها المستعمر إلا وجابهته انتفاضة أو ثورة شعبية، من مقاومة الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي، إلى مقامة الزعاطشة، مرورا بمقاومة لالة فاطمة نسومر والشريف بوبغلة، وأولاد سيد الشيخ، والمقراني والشيخ الحداد، وبوشوشة، والشيخ بوعمامة، والشيخ أمود...وغيرهم. ومن بين القبائل التي قاومت المستعمر الفرنسي في الصحراء الكبرى مقاومة شرسة في منطقة الحمادات بالجنوب الغربي الجزائري قبيلة الرقيبات، لكنها لم تحظى بالكتابة الكافية من طرف المؤرخين، وهو ما سنتناوله من خلال هذا المقال، وقبل الغوص في الموضوع وحتى يتسنى لنا فهم طبيعة هذه المقاومة لابد لنا من تعريف موجز بأوضاع الصحراء قبل دخول الاستعمار الفرنسي، والتعريف بالقبيلة.

أوضاع الصحراء الغربية الكبرى قبل دخول الاستعمار: تطلق كلمة الصحراء الغربية على كل الجزء الغربي من الصحراء الكبرى، والممتد من وادي درعة شمالا لغاية نهر السنغال جنوبا ومن عرق شاش ومنطقة الجوف شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا. وهي لا تشمل الجمهورية العربية الصحراوية الحالية فقط، وإنما أيضا أجزاء من الجنوب الغربي للجزائر، وموريتانيا، وجنوب المغرب، وشرق مالي[1]. ورغم كونها صحراء قاحلة عرفت المنطقة بأهميتها منذ فجر التاريخ، كما استوطنها البربر حسب ما جاء في أغلب المصادر التاريخية، حيث يقول ابن حوقل (القرن الرابع الهجري): أن بين المغرب وبلاد السودان مفاوز وبراري منقطعة، قليلة المياه، متعذرة المراعي، لا تسلك إلا في الشتاء، وبين براري سجلماسة وأوداغوشت مياه عليها قبائل من البربر المهملين، وهم لا يعرفون الطعام، ولا رأوا الحنطة ولا الشعير، وقوم حياتهم باللبن واللحم[2].

* – أستاذ مساعد ب في التاريخ الحديث والمعاصر – قسم التاريخ – جامعة الوادي.

كما عرفت منذ القديم كونها منطقة عبور للقوافل التجارية، بين السودان الغربي وشمال أفريقيا، ولهذا حفرت فيها العديد من العيون والآبار، التي كانت تتزود منها القوافل التجارية، وتتخذ منها أماكن للراحة، خاصة بعد إزهار مملكة غانا الإسلامية، وفي هذا الصدد يذكر الإدريسي أن هذه الصحاري فيها مجابات مياه، وأن الماء لا يوجد فيها إلا بعد يومين إلى اثني عشر يوم، مثل الطريق بين سجلماسة وغانا[3]. ومن هذه الآبار والعيون الكثيرة المنتشرة في الصحراء (تيندوف)، ويرى البعض أن تيندوف ما هي إلا (تدنفس) التي ذكر البكري؛ وأنها آبار يحفرها المسافرون جنوب وادي درعة مسيرة ثلاثة أيام، فلا تلبث أن تنهار وتندفن، ثم تسير منها إلى بئر كبير يقال لها وين هَيّلون[4]، وحدد البعض موقعها جنوب حمادة الدرعة، حيث تتواجد اليوم سبخة تيندوف الكبيرة[5]، ويرى البعض أن تندوف كلمة بربرية مركبة من كلمتين "تين" بمعنى الينبوع أو العين و"دوف" التي تعني غزارة التدفق، وبهذا يكون المعنى كاملا لتندوف هو العين الغزيرة التدفق[6]، وأود أن أشير هنا أن هناك الكثير من الأسماء في الصحراء تبدأ بكلمة تين مثل: تين زواتين، تين ركوك، تين كرام، تنيلان، تينورت، تين بكتو، ومن هنا يمكن القول أن كلمة تين تعني البئر أو العين أو مكان به ماء، كون أغلب المراكز الصحراوية كانت في بدايتها عيون وآبار، وقيل لفظة (تين) تعني المكان[7].

وبعد سقوط مملكة غانا ودولة المرابطين تدهورت حالة الطريق الغربي الرابط بين سجلماسة واوداغوشت، وكثرت فيه هجمات اللصوص وقطاع الطرق، ولم يعد يستهوي الكثير من التجار، فتدحرجت الطرق التجارية شرقا وأصبح طريق توات هو الطريق الرئيسي الرابط بين بلاد المغرب وبلاد السودان، وزاد من أهميته قيام مملكة مالي الإسلامية، وبروز مدينة تينبكتو وقاو كحاضرتين صحراويتين.

شهدت الصحراء الكبرى الإفريقية تدفق الكثير من الهجرات العربية التي اندفعت جنوبا ومنهم قبائل البرابيش بنو حسان[8]، وكنته، التي تذكر مصادرها التاريخية[9] أن نسبها يتصل بالفاتح الكبير عقبة بن نافع الفهري[10]، وبطون أخرى من العرب والبربر. أما عن سبب هذا التوجه جنوبا فيرى مارتان في الواحات الصحراوية أن العوامل الطبيعية كان لها دور أساسي في ذلك، مثل الجفاف الماحق الذي ضرب مناطق الشمال سنة 1130هـ/1718م فاتجهت أعداد كبيرة من القبائل إلى الصحراء جنوبا[11]. بينما يرى ابن بابير الأرواني أن حركة السكان كانت دائما نحو الشمال في موسم الأمطار، ونحو الجنوب في موسم الجفاف[12]، غير

أنه يمكن القول أن هاته القبائل العربية وجدت في الصحراء الإفريقية ما يعوضها عن بيئتها الأم في شبه الجزيرة العربية، فانطلقوا بكل حرية بحثا عن الماء والكلأ، دون أن ننسى اضطراب الأوضاع في الشمال.

شكل البرابيش والقبائل العربية الزاحفة على المنطقة ثقلاً سياسياً واقتصادياً؛ بسيطرتهم على طرق القوافل التجارية، والمراعي والآبار[13]، واضطر البربر المهزومون أمام الزحف العربي إلى دفع الأتوات، أو الانكفاء في المناطق المعزولة، واحتفظوا باسمهم (صنهاجة) والتي تحرفت إلى (أزناكة).

ومن القبائل العربية التي اندفعت جنوبا واستوطنت الجزء الغربي من الصحراء، قبيلة الرقيبات، أو الركيبات كما ذكرت في بعض المصادر، والتي تنتسب إلى الولي الصالح الشيخ سيد احمد الرقيبي، الذي ينتهي نسبه إلى إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وفاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم[14]. وقبل استكمال ترجمة الشيخ لابد من التوقف هنا عند الجد الثالث والعشرين، وهو شخصية الشيخ عبد السلام بن مشيش، أحد أقطاب التصوف في المغرب الإسلامي، وتلميذ الشيخ أبي مدين شعيب، وشيخ أبي الحسن الشاذلي شيخ الطريقة الشاذلية، كما يعد أيضاً جد الأشراف العلميين[15].

ولد الشيخ سيد أحمد الركيبي خلال القرن 11هـ/17م بوادي درعة في منطقة تعرف بالخراويع، في بيت علم وجاه، وبعد أن أتم حفظ القرآن الكريم، درس مختلف العلوم وتفقه في الدين، انتقل بعدها للدراسة في جامع الزيتونة بتونس، عاد بعدها إلى مسقط رأسه وبدا في نشر العلم يستقبل الطلبة والمريدين، والفقراء وعابري السبيل، فعمت شهرته الآفاق وذاع صيته بين الناس، وبقي على ذلك الحال إلى أن وافته المنية عن عمر ناهز الخمسة والسبعين 75 سنة، ودفن بالحبشي وهي بلدة تبعد إلى الشمال الشرقي من مدينة السمارة بحوالي 140 كلم. أما عن سبب تسميته بالرقيبي فيقال لكونه اشتهر بين رفاقه بإكثاره من قول (يا رقيب)، وقيل لأن والده الشيخ احمد والذي سمي باسمه دفن بمنطقة الرقيبة. أنجب الشيخ ثلاثة أبناء، وهم علي، وقاسم، وعمر، وبنت واحدة تسمى سلطانة، ومن هؤلاء تفرع أحفاده الرقيبات الأدارسة[16].

كانت في البداية قبيلة الرقيبات تنتمي إلى قبائل الزوايا الذين تفرغوا للعلم والدراسة كونهم فرعا من فروع بن مشيش شيخ العلوية العلمية، وسيراً على طريقة جدهم الشيخ أحمد، ثم ما لبثت القبيلة أن تفرعت، وانتقل أفرادها إلى تربية الإبل، الشيء الذي فرض عليهم حياة الرحال بحثاً عن الكلأ والأمطار، وهو ما دفع بفرانسوابيسلاي إلى تسميتهم بأبناء المطر[17]، وأجبرهم هذا في النهاية على حمل السلاح؛ للدفاع عن مراعيهم ومشاربهم، ومن ثم تحولوا إلى قبيلة محاربة، وقد تم هذا التحول في نهاية القرن الثاني عشر الهجري حسب بعض المصادر[18].

ولمعرفة أسباب التحول لابد من معرفة طبيعة الصحراء التي فرضت تقسيما اجتماعيا خاصا وفريدا من نوعه، حيث كانت في مركز الصدارة القبائل التي بيدها السلاح والسلطة، وهي من تقود القبائل الأخرى. يأتي في المركز الثاني القبائل المهتمة بالعلم والزوايا ويعرفون بالمرابطين. ثم المجموعات التي تهتم بالزراعة؛ وهي من القبائل الضعيفة التي تسكن في معظم الأحيان القرى. تليها القبائل التي تهتم برعاية الماشية وتدعى ازناقة[19]. ويرى البعض أن هذا التقسيم الاجتماعي للصحراء يعود للأمير المرابطي أبو بكر بن عمر اللمتوني، الذي قسم أتباعه إلى ثلاث فيئات: الفئة الأولى كانت مهمتها الجهاد فهي أصل القبائل المحاربة، والفئة الثانية وجهها للعلم فهي أصل الزوايا، والفئة الثالثة هم الذين أوكلت لهم مهمة مزاولة مختلف الأنشطة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، وهي أصل الأتباع المعروفين آزناكة أو اللحمة كما تعرف في القاموس الشعبي[20]. والبعض سمى هذا التقسيم بالارستقراطية العسكرية، التي فرضتها قبائل حسان العربية على القبائل الأخرى[21]. وبالتالي فإن التقسيم هنا هو تقسيم وظيفي للقبيلة، فهناك القبائل المحاربة، والتي تأتي في هرم التنظيم الإجتماعي، وتمتلك السلطة والسيادة، وهناك القبائل الغارمة، التي تدفع مقابل العيش بسلام، إلى جانب الزوايا من القبائل التي تفرغت للعلم[22].

لقد كان الصراع القبلي السمة السائدة في الصحراء وهو يشبه كثيرا ما كان يقع في شبه الجزيرة العربية مثل حرب داحس والغبراء، وحرب البسوس، وكان القتال يتم أحيانا لأتفه الأسباب، وحتى من دونها، وهو ما جعل الشيخ المختار الكنتي الكبير يذكر ذلك في قصيدة[23]، كما أصبح للعروبة مفهوم غير سلالي، مرادفا للشهامة والرجولة، حتى وإن كانت القبيلة غير عربية مثل: إدوعيش وإديشلي الصنهاجيتين. أما الزوايا ورغم مكانتها العلمية فكانت تعني في القاموس المحلي تابع، وكان يطلق العرب عليهم مصطلح (اللحمة) كما أسلفنا

أي اللحم الذي يؤكل أو يفسد، وأنهم انصرفوا للدراسة بعد عجزهم عن القتال حسب بول ماريّ[24]. كما كان للصحراء طقوسها وقوانينها التي فرضتها قبائل حسان، وكانوا يعيبون على من مات منهم مؤتةً طبيعيةً، لأن الرجل عندهم يجب أن يموت وهو ماسك سيفه، وإذا ذكر عندهم احد قتل في حرب يقولون: مات مفترشاً يعني أنه قَتَلَ آخر[25]، ويقول صاحب كتاب البسيط: أن الحرب في حسان أصل معهود بينهم، أن لم يكن مع غيرهم، فمع أنفسهم، وهو ما وقع بين إدوعيش والترارزة، وبين الترارزة والبراكنة[26].

ومن هنا كان لزاما على الرقيبات حمل السلاح، للذود عن أنفسهم، واحتلال الصدارة ورفض التبعية وإذاية الناس لهم خاصة قبائل دليم[27]، لأن منطق الصحراء يفرض عليك أما أن تكون سيداً أو مسوداً، كما جاء في الرسالة الغلاوية لمحمد بن المختار: ((...إذ المعروف بديهة دخول الضعيف تحت حلف القوي والخامل تحت خفارة النبيه والمهين تحت كنف المهيب...)) [28].

كما انه وفي ظل هذه الظروف ونتيجة لعدم وجود سلطة مركزية تحكم القبائل أنشأ الرقيبات لأنفسهم نظاما اجتماعيا لتسير أمورهم، يقوم على أساس مجلس يتشكل من أعيان القبيلة يعرف (ايت أربعين)، أو مجلس الأربعين، يرأسه شخص يدعى (المقدم) [29] وهو أعلى سلطة في القبيلة ورئاسته متداولة بين الأعضاء، وتتخذ قراراته بالإجماع وفقا للأعراف وتقاليد القبيلة المستمدة أساسا من الشريعة الإسلامية، ويقوم المجلس بتسيير شؤون القبيلة، والتفاوض باسمها، والدفاع عنها، وتأمين المراعي وآبار المياه، أما عن سبب تسميته بذلك فثمة من يرى أن الاسم يدل على عدد الأعضاء الذين يشكلون المجلس، وهناك من يرى أن هذه التسمية تعود لكون المجلس لا يقبل في عضويته إلا من كان عمره فوق الأربعين.

وبفضل هذا المجلس اوجد الرقيبات لأنفسهم تنظيما حفظ استقلاليتهم عن جميع مراكز القوة التي كانت تحيط بهم، سواء الإمارات الموريتانية في الجنوب، أو الحكم المراكشي في الشمال، كما استطاعوا توسيع الرقعة الجغرافية التي يتنقلون فيها بكل حرية في منطقة شاسعة تمتد من وادي درعة شمالا إلى منطقة ازواد جنوبا[30]. ويؤكد هذا الطرح ما جاء في معاهدة لالة مغنية المبرمة بين فرنسا والمغرب يوم 18 مارس 1945 لتحديد الحدود على أن قصور فيقيق وبيش تابعة للمغرب من جهة وعين الصفراء وسفيسفة وعسلة وتيوت تابعة للجزائر والأرض التي جنوب هاته المناطق صحراء خارجة عن السيادة المغربية والفرنسية[31].

كان التوسع الاستعماري في الصحراء هدف استراتيجي للمستعمر بغية تشكيل إمبراطورية استعمارية تشمل شمال أفريقيا والصحراء الكبرى والسودان الغربي، ويتم ربط أجزائها بخط للسكك الحديدية. ففي الجزائر وبعد أن أخضعت فرنسا شمال الجزائر بدأت أنظارها تتجه جنوبا فأحكمت قبضتها على توات سنة 1901م، وعلى الساورة سنة 1904م، وتابلبالا سنة 1910م وتمكنت من الوصول إلى عرق شاش سنة 1912م[32]. وفي موريتانيا كانت فرنسا قد فرضت وصايتها على أمراء الترارزة والبراكنة[33]، كما عمدت إلى سياسة التفريق بين القبائل وضرب بعضها ببعض، والاتصال المباشر مع الزعماء وشيوخ الطرق الصوفية لكسبهم لصف الاستعمار[34]، ومن ثم دفعها لمهاجمة القبائل التي رفضت الرضوخ كما ظهرت حركة فقهية تزعمها الشيخ سعد بوه ولد الشيخ محمد فاضل والشيخ سيديا الكبير تدعو بحرمة الجهاد وأرسلت السلطات الاستعمارية سنة 1905م، خبير في الشؤون الإسلامية وهو (كزافييه كوبولاني) لتطبيق سياسة التوغل السلمي[35]، كما بدأت القوات الفرنسية تعزيز مواقعها داخل أراضي الصحراء الغربية، وأما هذا الوضع اندفعت القبائل في الحمادات ومنها قبائل الرقيبات للجهاد في سبيل الله والذود عن أرض المسلمين.

المقاومة الشعبية للرقيبات: هناك الكثير من الأسباب كانت وراء الانتفاضة الشعبية للرقيبات ضد المستعمر منها: طبيعة القبيلة الرافضة للخضوع والدخول تحت وصاية أحد، فما بالك إن كان الوصي من النصارى، وتعودها على حمل السلاح كما أسلفنا سابقا، وتضييق المستعمر وأعوانه على حرية تنقل القبيلة ومصادر رزقها، دون أن ننسى الدافع الديني الجهادي، وخاصية التمسك بالأرض التي ورثها أفرادها أبا عن جد. كما أن هناك وصية متداولة بين الرقيبات للشيخ أحمد الرقيبي، ومن ضمن ما جاء فيها: ((...يا أبنائي ما تركت لكم من عدو من المسلمين في مشارق الأرض و مغاربها، فكل المسلمين إخوتي و أصحابي, ولم اترك لكم من عدو سوى النصارى فاحذروهم ثم جاهدوهم بكل ما أوتيتم من قوة...))[36].

شملت مقاومة الرقيبات جميع مناطق غرب الصحراء الكبرى تقريبا؛ (موريتانيا، الصحراء الغربية، شمال ووسط مالي، الجنوب الغربي الجزائري، جنوب المغرب). ويذكر بول مارتي[37] أن القوات الفرنسية كانت دوما عرضة لهجمات القبائل القادمة من الشمال أو من الغرب، ويذكر خاصة؛ الرقيبات، وأولاد بالسبع، وأولاد غيلان، وأن النصر في الغالب كان حليفهم، رغم وقوف بعض القبائل المحاربة مع الاستعمار مثل أولاد علوش في البداية[38]. وقد كانت

هجمات الرقيبات لغاية بداية القرن العشرين تمتد حتى ولاته جنوبا والتي اتخذوها قاعدة لهم وكانت آخر قواعدهم في الجنوب[39]. وسنحاول في هذا السياق ذكر بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر:

– في ربيع 1902 هاجمت الوحدات الفرنسية العاملة في الساورة قبيلة الرقيبات وهذا في منطقة قرزيم بعرق شاش (اركشاش) وأعادت الكرة في فصل الصيف بمنطقة أم لقدور في إقيدي وفي نفس السنة تحركت القوة الفرنسية العاملة في توات وهاجمت الرقيبات في الطويلة بإيقيدي.

– في مارس سنة 1908م كانت البعثة الاستكشافية الفرنسية مخيمة بالحمادة ليلا قرب داوارا فقامت مجموعة من المقاومين بمحاصرتها وقتلوا الملازم رونيه وجرحوا العديد من أفرادها، وسميت المعركة بمعركة الحميدة[40].

– انضمام كثيرا من الرقيبات وسكان تندوف لثورة الشيخ ماء العينين في السمارة ضد المستعمر الفرنسي، وبعد وفاته سنة 1910 انضموا لثورة نجله أحمد الهيبة بن ماء العينين بن محمد الفاضل سنة 1914م، وشاركوا في الكثير من المعارك، وبقوا إلى جانبه لغاية وفاته سنة 1919م[41].

– في 08 نوفمبر سنة 1917 جرت معركة (شميم) الشهيرة بين قوات من الرقيبات قوامها ثمانون رجلا مع القوات الفرنسية بقيادة الملازم مرسيي ( MERCIER ) قائد مفرزة الهجانة الشرقية مدعوما بالرماة من أولاد علوش وسقط في هاته المعركة بعد ست ساعات من القتال الدامي 19 شهيدا من الرقيبات، ورغم أن القوتين لم تكونا متكافئتين فقد تمكن المجاهدون من الرقيبات من جرح العميل حننه ولد الشيخ وهشمت بندقيته، وكافأه المستعمر بأن منحه رتبة فارس من وسام جوقة الشرف، وهو الأول من بين البيضان[42] في أفريقيا الغربية الذي يحصل على هذه الرتبة[43].

– أبريل 1926م معركة الطريفية الشهيرة ودامت حوالي ثلاثة أيام وهي من أكثر المعارك دموية، وقد شاركت فيها كل القبائل الصحراوية وتميز فيها الرماة من الرقيبات بمهارتهم في التصويب[44].

– سنة 1934م معركة أم التونسي والتي وقعت شمال نواقشط الحالية بحوالي 34 كلم بقيادة المجاهد الرقيبي علي ولد ميارة الذي تطوع في البداية للجهاد تحت راية الشيخ ماء العينين في السمارة مع أفراد من قبيلته، وبعد وفاة الشيخ ماء العينين سنة 1910م واصل الجهاد ضد

المستعمر، وتعد معركة أم التونسي آخر معركة خاضها المجاهدون المسلمون ضد فرنسا في موريتانيا، وكانت حامية الوطيس وقد استشهد ولد ميارة في هاته المعركة رفقة عدد كبير من رفاقه[45]. وفي نفس هذه السنة أحكمت فرنسا سيطرتها على المنطقة ودخلت القوات الفرنسية تيندوف يوم 31 مارس 1934م كما التقت يوم 07 ابريل 1934 القوات الفرنسية القادمة من المغرب والجزائر وموريتانيا في بالمكان المسمى بلقردان، وتم الإطباق على المقاومة بصفة نهائية.

وبعد أن أحكم المستعمر سيطرته على المنطقة لجأ الرقيبات إلى شكل آخر من أشكال المقاومة بمحاربة سياسة الاندماج ومقاطعة المستعمر وظهر فقهاء أفتوا بحرمة التعامل مع المستعمر وذهب البعض منهم إلى الفتوى بحرمة النظر إلى وجوه النصارى أو التعامل بنقودهم؛ مثل الشيخ سيدي محمد ولد ابيشر دفين اعوينت بلقرع، والشيخ البلال ولد سيدي إعيش العياشي[46].

كما بودنا أن نشير أن هجمات الرقيبات لم تكن موجهة ضد المستعمر فقط، وإنما ضد القبائل الخاضعة له، حيث أنه بعد أن وصل الفرنسيون إلى منطقة الساحل بدءوا في الاتصال مع المختار الشيخ ثم مع الأمير محمد المختار زعيم قبيلة مشظوف، وهو جعلها عرضة لهجمات الرقيبات وأولاد بالسبع وأولاد غيلان حسب بول مارتي[47]، ونفس الشيء بالنسبة لأهل بوردّة. كما انه في نهاية شهر نوفمبر سنة 1906م شنت قبائل الرقيبات مع أولاد علوش هجوما على القبائل الخاضعة في الشمال، مما دفع السلطات الاستعمارية إلى الطلب من تلك القبائل الاقتراب من الثكنة العسكرية من أجل توفير الحماية لها[48].

لقد مثلت مقاومة الرقيبات شوكة في حلق المستعمر، أرهقتهم وأفسدت مخططاتهم التوسعية في المنطقة، وبالتالي لم يتوانى في منح الامتيازات والهبات للقبائل التي كانت تلحق الأذى بالرقيبات، وتساعدهم في التخلص منها، ولهذا كان الرقيبات دوما عرضة لهجمات القبائل المهادنة بدافع من المستعمر مثل الزوايا من أهل بوردة[49]، كما أن الفرنسيون قد اثنوا على القلة[50] بن الشيخ بن أحمد بن أرشق زعيم أهل بوردّه لأنه كان دائما يطارد الرقيبات خاصة بين سنتي 1909 ــ 1914م[51]. كما جاء في صك الخضوع الكامل والموقع بتاريخ 08 ماي 1894 من قبل الشيخ بن سيدي زعيم أولاد داوود وفي البند الثالث منه ما يلي: أن هذه القبائل لن تشن أي حرب ضد أي قبيلة دون ترخيص من السلطات الفرنسية، وستحارب من أجل القضية الفرنسية[52]. وفي هذا الصدد أيضا يذكر فرانسوا بيسلاي في كتابه (الرقيبات)

عندما يتطرق لأحمد ولد كركوب زعيم قبيلة أولاد عمني كبرى قبائل يحي بن عثمان في آدرار بقوله: "احمد ولد كركوب هو محارب معتز بنفسه مرصع بالنياشين التي استحقها في حربه إلى جانبنا في مواقع كثيرة وخصوصا في عملياتنا ضد الرقيبات"[53]، وعلى العكس من ذلك كان المستعمر يتضايق ويعاقب القبائل التي كانت تقدم الدعم للمقاومين مثل قبيلة تجكانت التي يذكر بول ماريي أن سمعتها كانت سيئة عند الفرنسيين لأنها كانت تقدم الدعم والمأوى لغزاة الشمال[54]. كما لم يتوانى المستعمر وضباطه بوصف القبيلة في كتاباتهم بأبشع النعوت والصفات كالعصابات، وقطاع الطرق،...وغيرها، وهو أمر طبيعي وبديهي فقد وصف المجاهدون في الثورة بنفس الصفات وأكثر.

لقد تميزت مقاومة الرقيبات بالعفوية ومباغتة العدو في كل مكان، معتمدين على أسلوب الكر والفر، وعلى امتداد القبيلة وتوسعها، ومعرفتهم الجيدة بالصحراء، وحمل السلاح، كون الرقيبات اشتهروا بين كل المقاومين بالدقة في الرماية والتصويب، فكان أمهر الرماة من الرقيبات[55]،كما أن مقاومتهم لم تكن منظمة تحت إشراف قائد معين، وإنما كان يتم اختيار القائد حسب كل موقعة، على أساس درايته بالمنطقة المستهدفة، وكان القائد الميداني لكل معركة يسمى الضمين[56]. ولعل هذا ما يبرر عدم ظهور قيادة بارزة مثل باقي المقاومات الشعبية الأخرى، كما مكنت هذه الطريقة المقاومة من الاستمرار وعدم التأثر بوفاة القائد أو استسلامه. كما شكلت عقبة أمام فرنسا للقضاء علي هاته المقاومة، ولم تتمكن من ذلك إلا بعد توحيد جهود جيوشها في مختلف المناطق الصحراوية. حيث انعقد في 16 يناير سنة 1925 في مدينة مراكش مؤتمر بين قيادات هذه الجيوش وتقرر فيه القيام بأعمال مشتركة ضد القبائل الصحراوية بغية تضييق الخناق عليها ومحاصرتها[57]، مع السيطرة على الآبار والطرق الإستراتيجية، ومحاصرة المنطقة من مختلف الجهات. ولهذا الغرض التقت سنة 1929م بمنطقة إيقيدي الحاميات الفرنسية العاملة في توات والساورة- ولهذا يعرف هذا العام محليا في حوليات الرقيبات، ويسمى بعام ملقى الغزيان- وواصلت القوات الفرنسية تقدمها لغاية سيطرتها على مدينة تندوف سنة 1934م .

وفي الختام يمكن القول أن مقاومة الرقيبات هي حلقة من حلقات المقاومة الشعبية التي خاضها الشعب الجزائري ضد المستعمر الفرنسي وهي امتدادا لمقاومتهم في الدول المجاورة وعموم الصحراء، كما كان لهذه المقاومة اثر كبير في تأخر تقدم القوات الفرنسية تجاه تيندوف

والمناطق المحيطة بها لغاية سنة 1934م، مما جعل تيندوف آخر قلعة في الجزائر تسقط بيد الاستعمار. كما أنه على الشيوخ وكبار السن من القبيلة المساهمة في كتابة تاريخها قبل أن تختطفهم المنية، ويضيع برحيلهم تاريخ قبيلة بأكملها وكما قال أحد المؤرخين: ((عندما يتوفي شيخ في أفريقيا يمكن القول أن مكتبة قد احترقت)).

الهوامش:

(*) ينظر: الأطلس العالمي: المعهد التربوي الوطني الجزائري، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، بدون تاريخ، ص ص 30، 31.

(2) أبي القاسم بن حوقل النصيبي: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1992، ص ص83، 84، 100.

(3) محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني(أبي عبد الله الشريف الإدريسي): نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د ت ن، ص ص 17، 18.4) أبي عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت، ص156.

(5) عبد العزيز شـــهـــبـــي: منطقة تندوف في مسالك التجارة الصحراوية خلال العصر الإسلامي، مقال غير مطبوع، ص 03.

(6) نفسه، ص2

(7) عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, الجزائر,1971م.

(8) هم قبائل عربية ينتسبون إلى بني حسان, جاءوا إلى شمال أفريقيا ضمن الهجرة الهلالية, وعن سبب تسميتهم بالبرابيش يرى البعض: أن الأفخاذ التي تتكون منها قبائل البرابيش جاءت من مناطق مختلفة، لا يجمعها رابط إلا الائتلاف السياسي، فأطلقوا على كافة الأفخاذ تسمية موحدة وهي البرابيش. للمزيد حول الموضوع أنظر بول ماريّ: البرابيش بنو حسان، تعريب محمد محمود ودّادي, طبعة دمشق, بدون تاريخ.

(9) حول نسب كنته ينظر: محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار الكنتي الوافي, الرسالة الغلاوية, تحقيق حماه الله ولد السالم, منشورات معهد الدراسات الإفريقية, ط1, مطبعة الكوثر, الرباط, المغرب, 2003ص 139 وما بعدها. محمد بن سيد المختار الكنتي: الطرائف والتلائد من كرمات الشيخين الوالدة والوالد, مخطوط, د ت، جزآن, خزانة الشيخ سيدي عبد القادر المغيلي, الحي الغربي, ادرار, الجزائر.

(10) وقد اعترض بعض النسابين في الصحراء على نسبة كنته لعقبة بن نافع وقالوا أنهم من بني أمية أو ربما أنهم لم يفرقوا بين النسب والموالاة كون عقبة بن نافع الفهري (ض) كان من الموالين لبني أمية أحمد بن الأمين الشنقيطي, الوسيط في تراجم أدباء شنقيط, ط2, مطبعة السنة المحمدية, القاهرة, 1958م ، ص361.

(11) Martin A.G.P: Les oasis Sahariennes Gourara- Touat- Tidikelt, Edition de l'imprimerie algérienne, Alger,1908.

(12) أحمد بن بابير الأرواني : السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تمبكتو البهية, المكتبة الزيدانية, نيامي, النيجر: ص 11.

(13)الهادي المبروك الدالي: قبائل البرابيش ودورهم في منطقة إفريقيا فيما وراء الصحراء, أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء, تنظيم كلية الآداب تطوان المغرب و كلية الدعوة الإسلامية طرابلس ليبيا, يومي 15 ــ 17 محرم 1428هـ الموافق 12 ــ 14 ماي 1998م، ص 292.

(14) ينظر نسب الشيخ: محمد سالم بن لحبيب بن الحسين بن عبد الحي: جوامع المهمات في أمور الرقيبات، تحقيق وتقديم محمد ناعمي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1992، ص 14 وما بعدها.

ـــ منير عبد العزيز بن مولاي الحسن الرقيبي: الشرفاء الرقيبات بالصحراء الغربية، مطبعة التيسير، الدار البيضاء، المغرب، 1991م.

ـــ أعمال معروف الولي الصالح الشيخ سيدي أحمد الرقيبي ، جمعية معروف الشيخ سيدي أحمد الرقيبي، تندوف، 2006.

- Sophie Caratini, Les Rgaybat (1610 – 1934) territoire et société, 2 t, l' Harmattan, paris, 1989.

(15) هو عبد السلام بن مشيش وقيل بشيش بالباء وقيل اسم أبيه سليمان الملقب بمشيش ابن أبي بكر(منصور) بن علي الإدريسي الحسني وقال البعض إنه جد الأشراف العلميين كلهم ولد في جبال بن عروس شمال المغرب حفظ القرآن في سن مبكرة ورحل إلى بلاد المشرق وأخذ عن علماء الإسكندرية ومكة والمدينة كما تتلمذ على يد الشيخ أبي مدين شعيب في بجاية وعنه أخذ التصوف، تتلمذ على يده الكثير منهم أبو الحسن الشاذلي من أهم آثاره، – إعانة الراغبين في الصلاة والسلام على أفضل المرسلين المعروف بالصلاة البمشيشية، – شجرة الشرف وهي رسالة في دار الكتب المصرية. قتل شهيدا على يد جماعة بعثهم رجل يدعي ابن أبي الطواجين الكتامي الساحر المتنبئ سنة 625هـ /1228م وقيل 622هـ /1225م.

ينظر ترجمته: خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط15، ، دار العالم للملايين، بيروت، 2002، الجزء الرابع، ص 09. أبو عمران الشيخ وآخرون: معجم مشاهير المغاربة، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1995، ص ص 500، 501.

(16) محمد سالم بن لحبيب: المصدر السابق، ص ص 19، 20. أعمال معروف الولي الصالح الشيخ سيدي أحمد الرقيبي: مرجع سابق.

17( Francois Beslay: les Réguibats de la paix Française au front Polisario, éditions l' Harmattan, Paris, 1984, p .

(18) محمد سالم بن لحبيب: المصدر السابق، ص 17.

(19) بول ماريتي: كنته الشرقيون, تعريب محمد محمود ودّادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق سوريا، 1985م، ص ص 26، 27.

(20) محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار الكنتي الوافي, الرسالة الغلاوية ، المصدر السابق: ص 69 (الهامش)

(21) نعيم قداح: حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية, ط2, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, الجزائر1975م, ص25.

(22) الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة والرباط, المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم, تونس, 1987, ص 34.

(23) يقول فيها من فتنة غَشَتْ بظلمائها أضحى بها العالم كالجاهل

وضلّ فيها المرء عن رشده زيغاً عن الحق على الباطل

فاجعل لنا يا ربنا مخرجا من هولها المقتحم الهائل

أحمد بن الأمين الشنقيطي, المصدر السابق, ص361.

(24) بول ماريتي: كنته الشرقيون، المصدر السابق ص 26.

(25) أحمد بن الأمين الشنقيطي، المصدر السابق، ص480.

(26) نفسه: ص485.

(27) محمد سالم بن لحبيب: المصدر السابق، ص 16.

(28) محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار الكنتي الوافي, الرسالة الغلاوية ، المصدر السابق: ص 168.

(29) محمد سالم بن لحبيب: المصدر السابق، ص 25.

(30) J .Larribaud: TINDOUF :Archives de L'INSTITUT PASTEUR /ALGER

(31) Archives d'Outre Mer (AIX – EN – PROVENCE), 30 H 15.

(32) إبراهيم مياسي: توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري(1881 ــ 1912)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، ص 115 وما بعدها.

L' HOMME ET LE SAHARA, édition GALLIMARD, p 97,98. (33)HENRI. P. E:

(34) وثيقة عهد بين فرنسا وبعض قبائل الزوايا، مخطوطة، رقم 2117، خزانة أهل العالم، الشارات، موريتانيا.

(35)آدو بواهن وآخرون: تاريخ إفريقيا العام، المجلد السابع(إفريقيا في ظل السيطرة الاستعمارية 1880 ــ 1935م)، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)و أديفرا، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1990، ص 109.

(36) عبد الكريم الرقيبي: الشيخ سيدي احمد الرقيبي، مقال، [على الخط]، منتدى الرقيبيون والرقيبيات، منتدى يعنى بتاريخ ونسب الرقيبيات، كتب بتاريخ 2011/03/09، متاح على <ttp://rakibi-abdelkrim.blogspot.com>، تاريخ الإطلاع (2012/03/18).

(37) بول ماريّ: ولد سنة 1882 في الجزائر باحث وخبير في شؤون الصحراء عمل مع الحكومة الفرنسية في الجزائر وتونس ثم انتقل على غرب أفريقيا سنة 1912م مستشارا للوالي الفرنسي، قضى أكثر من تسعة سنوات في الدراسة والبحث، ونشر أكثر من خمسين دراسة عن الشعوب الإسلامية في قارة أفريقيا توفي في تونس 1938م.

(38) بول ماريّ: القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني ، تعريب محمد محمود ودّادي، دار السراج، بيروت لبنان, 2005م، ص 34.

(39) نفسه: ص 314.

(40) إبراهيم مياسي: مرجع سابق، ص 122.

(41) محمد سعيد القشاط: أعلام من الصحراء، ط1، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1997م، ص ص 25، 26.

(42) البيضان هو الاسم الذي يطلق على العرب من ذوي البشرة البيضاء.

(43) بول ماريّ: القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني، مصدر سابق، ص ص 50، 51.

(44) علال الخديمي: مقاومة القبائل الصحراوية للاحتلال الفرنسي في الثلث الأول من القرن العشرين: مجلة التاريخ العربي, مجلة علمية محكمة تعنى بالتاريخ العربي والفكر الإسلامي، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، ع 5، شتاء 1998م، ص 267.

(45)محمد سعيد القشاط: مرجع سابق، ص ص 126، 127.

(46) لحبيب حيسون: مرجع سابق، ص 11.

(47)بول ماريّ: القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني، مصدر سابق، ص 133.

(48) نفسه: ص 42.

(49) نفسه: ص 56.

(50) ولد حوالي 1878 زعيم قبيلة أهل بوردة بعد وفاة والده في 30 ابريل 1905م كان رجل غني ومستبد تفاني في خدمة المستعمر الفرنسي ولم يكن يتوانى في جمع السلاح على أفراد قبيلته ممن شك في إخلاصهم وتقديمه للمستعمر عرف بارتباطه الشديد بحننه ولد الشيخ. بول ماريّ: المصدر السابق، ص، ص 59، 60.

(51) نفسه، ص 60.

(52) نفسه: ص 36.

(53) Francois Beslay: op. cit, pp 112, 113.

(54)بول ماريّ: القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني، مصدر سابق ، ص 101.

(55) علال الخديمي: مرجع سابق، ص 267.

(56)لحبيب حيسون: المقاومة الشعبية في الجنوب الغربي، مقال غير منشور، ص09.

(57) علال الخديمي: مرجع سابق، ص 268.